

نشر موقع "ميدل إيست آي" رواية أحد الناجين من مجزرة اعتصام رابعة العدوية وكان الناج هو "محمود بندق"، رئيس وسائل التواصل الاجتماعي في الموقع البريطاني. وبدأ "بندق" روايته واصفًا الأجواء، قائلاً: "كانت الساعة 6 صباحًا، وكانت الطاقة المتبقية في بطارية هاتفي 17 في المائة ولم أستطع النوم في غضون الساعة التالية، كنت سأجري ما كان يمكن أن يكون آخر مكالمة هاتفية لي مع أخي، قبل أن أشهد ما أطلق عليه لاحقًا "أسوأ قتل للمتظاهرين في يوم واحد في التاريخ الحديث".

العلامات الأولى

وتابع: "كان التاريخ يوم الأربعاء 14 أغسطس 2013 وكان قد مضى شهران على إجازتي السنوية في مصر. شاهدنا أنا وأصدقائي الانقلاب العسكري على شاشات التلفزيون قبل شهر واحد فقط. انضمنا إلى الاعتصام في ميدان رابعة لنضيف أصواتنا إلى آلاف الأشخاص المتجمعين هناك الذين كانوا يطالبون باحترام حقوقهم الديمقراطية". في ذلك الصباح، ترك صديقيه "عمرو" و"سالم" نائمين في خيمتهم وتوجه إلى مقهى محلي بالقرب من طيبة مول الذي أصبح مكاننا اليومي أثناء الاعتصام. هناك، صادف صديقًا آخر "محمد" الذي كان يعيث بالكاميرا. كان يعيش قريبًا، لذلك كان عادة ما يعود إلى المنزل كل ليلة، ولكن في هذه الليلة بالذات قرر البقاء. عندما أشرقت الشمس في اليوم السابع والأربعين من الاعتصام، لاحظ "بندق" بسرعة أن شيئًا ما كان غريبًا: على الجانب الآخر من الطريق حيث، كان مبنى من 13 طابقًا تابعًا للجيش قد انتهى للتو بناء سور جديد له، يحميه من أعلى إلى أسفل، مع الأخذ في الاعتبار أنه لم يحاول أحد مهاجمة المبنى أثناء الاعتصام.

الشيء الثاني الذي لاحظته "بندق" هو أنه على سطح المبنى ظهرت بعض أكياس الرمل الجديدة، موضوعة على بعد أمتار قليلة. ونحن حاول "بندق" توصيل هاتفه بالشاحن المعتاد الذي ورأى أن الكهرباء قد انقطعت، أدرك حينها أن شيئًا ما كان يحدث بالتأكيد. ويقول "بندق": "عدت إلى المقهى وأنا أنظر إلى السطح وخيام المتظاهرين المتمركزة في الأسفل، عندما ظهر رجل على السطح ووجهه بندقيته نحو المتظاهرين، ثم اختبأ بسرعة".

وسأله صاحب المقهى مندهشًا: "هل رأيت ذلك أيضًا؟". عندها عرف "بندق" ما كان يحدث. وبدأ بكتابة منشور على تويتر حول هذا الموضوع.

كانت الساعة حوالي الساعة 6.30 صباحًا عند هذه النقطة. غادر المقهى وقرر أن يتفقد ما يحدث على الطرقات الخلفية خلف طيبة مول بشارع أنور المفتي. كانت الطرق فارغة، ولم يكن هناك شيء يبدو في غير محله.

"تنفّس ذعرًا"

في طريق عودته لاحظ "بندق" رجلًا وطفلاً يشيران في الاتجاه خلفي. التفت ليرى ثم شعر بالذعر: ظهرت سيارة هامفي تابعة للشرطة بهدوء من طريق جانبي، مخفية بواسطة أكياس الرمل التي كدسها المتظاهرون عند المداخل لحماية الاعتصام. وكانت على بعد أقل من 20 مترًا منه.

وأردف "بندق": "كانت أفكارني مشتتة، وبدأ ذهني في المبالغة، حتى اتضحت فكرة واحدة: أركض يا "محمود". وعندما استدرت وبدأت أركض، أطلقت أول عبوة غاز مسيل للدموع وسقطت على بعد أمتار قليلة مني". بحلول الوقت الذي عاد فيه إلى الخيمة، كان الجميع مستيقظين وذكر "بندق": "كنا تنفّس ذعرًا". ظهر القناصة والقوات الأمنية على سطح المبنى العسكري المقابل وبدؤوا بإطلاق النار. وكان الناس يركضون بشكل محموم كما أمطر عليهم الغاز المسيل للدموع وعمت الفوضى.

وعندما جمع "بندق" وأصدقاؤه شتات أفكارهم، بدأوا بوضع القنابل في أي شيء يمكن استخدامه كدلو وملئه من صنوبر في مقهى قريب.

يروى "بندق" تفاصيل ما شهدته أثناء الفض الوحشي للاعتصام، واصفًا سقوط المتظاهرين "بلا حراك" إثر إصابتهم بطلق ناري، وكذلك صف القناصين على السطح المقابل له وأوضح أنهم كانوا "عالقين ومحاطين"، عندما وجدوا غطاء في زقاق بالقرب من المركز التجاري، ولكن سرعان ما أدركوا أن حارتهم بها مدخل يسهل على قوات الأمن الوصول إليه.

ويضيف: "كنا بحاجة إلى المغادرة في أسرع وقت ممكن، وكان السبيل الوحيد للخروج هو الجري في العراء أمام القناصين". في تلك المرحلة، مع آخر شريط للطاقة في بطارية "بندق"، قام بما اعتقد أنه سيكون آخر مكالمة هاتفية. أخبرته أخته الأكبر الذي كان في الإسكندرية في ذلك الوقت: "لقد بدأ".

كان نصف نائم ولم يفهم ما كنت أقوله؛ فأخبره أن "شغل التلفزيون!". أغلقت الخط وحاول الاتصال بصديقه المقرب في لندن، ولم يرد، فأرسل له صورة من وصيته على واتساب، شملت قائمة ديونه ورسالة إلى أصدقائه وعائلته. وكان قد بدأت في كتابتها بعد المجزرة الأولى التي شهدتها في الميدان.

تهديد القناصين

لجأوا بعدها إلى "بير سلم" أخفاهم عن أنظار القناصين، حتى خرج شاب إلى الطريق للحظة لإلقاء نظرة على ما كان يحدث وسقط على الأرض على الفور.

كانت أولويتهم هي إبقائه على قيد الحياة هو والمتظاهرين المصابين الآخرين الذين كانوا معهم. استخدم شخص ما قميصًا لعمل ضمادة مؤقتة والضغط على الجرح. وكان عليهم التحرك بسرعة لإخراج الرجل المصاب وحملته مجموعة من المتظاهرين بينهم "سالم". وانتظروا توقف إطلاق النار للهروب. صرخ أحدهم "الآن!" وركضوا عبر الطريق ووصلوا إلى الجانب الآخر بعد ذلك، جاء دور "بندق" و"عمرو".

ويردف "بندق" متذكراً: "وبينما كنت أهرب من مرمى النيران، ضاق صدري فجأة وسقطت على الأرض لم أستطع التنفس بدأت أسعل الدم ملأ الغاز المسيل للدموع رئتي، لكننا لم نكن بأمان بعد
قلت لـ"عمرو": "لا أعتقد أنني أستطيع التحرك لا أستطيع التنفس". وقال: "لا يمكننا البقاء هنا، نحن بحاجة للتحرك".
وتابع: "رفع رأسي إلى الحائط، ووضع جهاز الاستنشاق في فمي وقال "تنفس". بعد مرتين، شعرت بتحسّن وتوجهنا نحو المستشفى في مركز الاعتصام الذي يمكن الوصول إليه بإحدى طريقيين
عندما اقتربنا من الطريق الأول، استدار ضابط أمن ملثم يرتدي ملابس سوداء ويحمل مسدسًا من طريق جانبي أمامنا على بعد أمتار قليلة استدرنا على الفور وحينها وجدنا مجموعة من المتظاهرين على الطريق يركضون نحونا وصرخوا: ارجعوا لقد وصلوا (قوات الأمن). ارجعوا!". كنا محاصرين".

طلقات نارية بدون توقف

وبعد محاولات الهرب والاختباء، ولحظات مؤلمة من الخوف والقلق والذعر، دخل "بندق" ومن معه أحد الأبنية السكنية وفجأة، فتح باب أحد الشقق، وقال رجل: "تعالوا".
دخلوا جميعًا ليذهلوا بعشرات المتظاهرين الآخرين، وبعضهم مصابًا، يرغبون بملجأ ولكن كانوا بحاجة لمواصلة التحرك في الطابق الخامس وجدوا غرفة تخزين فارغة، مساحتها حوالي مترين مربعين، وقد حشر ستة منهم بالداخل وأغلقوا الباب لم تكن هناك أضواء، ولم يكن هناك إشارة استقبال للهاتف ونافذة صغيرة واحدة فقط
كان صوت الطلقات النارية التي لا تتوقف واضحًا وكانت الإنذارات ترن وكان بإمكانهم سماع طائرة هليكوبتر تحلق على ارتفاع منخفض فوق الساحة، وضجيج من الميكروفون في مركز الصدارة
"كنا نعلم جميعًا أنه في أي لحظة يمكن أن تجدنا قوات الأمن وتقتلنا لم نتبادل أي كلمات خوفًا من أن نسمعنا أو يُعثر عليها".
وبعد مرور ساعة اتصل أحد المتظاهرين الذي كان معه بصديق كان يعيش في المبنى وبعدها أسرعوا إلى الطابق العلوي فتح أحدهم الباب وضغط بإصبعه على شفتيه طالبًا منهم السكوت
في الداخل، كان هناك بالفعل أكثر من 40 متظاهرًا يختبئون كانوا صامتين بشكل مخيف كانت الستائر مغلقة، ولم يكن هناك كهرباء، والشيء الوحيد الذي سمعوه هو صوت الفوضى بالخارج كان هناك أطفال وشيوخ وشباب الرجل الذي فتح الباب صادر هواتفهم ثم أشار إلينا بالانتقال إلى غرفة المعيشة
كان بعض الأشخاص على الأرض مصابين بطلقات نارية، وآخرون كانوا يتعاملون مع الآثار الجانبية للغاز المسيل للدموع تنقل طبيب بين الجرحى وعالجهم بالإمدادات الطبية المحدودة التي تمكن من العثور عليها من حين لآخر كان يختفي في غرف أخرى في الشقة حيث كان هناك المزيد من الجرحى
ويقول "بندق": "ما زلنا لا نعرف ما إذا كان "سالم" قد نجح في الخروج بأمان، أو أين يمكن أن يكون كنا نسمع الضجيج من المسرح المركزي في رابعة وهذا يعني أن القوات الأمنية لم تنظف الاعتصام بعد وستظل تبحث عنا".
في حوالي الساعة 6 مساءً، هزت انفجارات عنيفة المبنى، وسادت المنصة المركزية الصمت كنا نعلم أن الأمر قد انتهى لقد قاموا بالفعل بفض الاعتصام
انجرفت بين النوم والاستيقاظ، وكنت استيقظ على الانفجارات طوال المساء مع حلول الليل، تباطأت الطلقات النارية وبدا أن المروحية ابتعدت أكثر

برك من الدم وأحذية مهملة وأغلفة من الرصاص

في الخامسة من صباح اليوم التالي، أيقظهم أحد المتظاهرين الذين غادروا لمعرفة ما كان يحدث وقال إنهم قضا تمامًا على الاعتصام وأنه تم فرض حظر التجول، وأنه سينتهي الساعة 7 صباحًا وقال إن تواجد القوات الأمنية أخذ في التناقص، وسرعان ما سيكون الوضع آمنًا للمغادرة
نصح جميع المتظاهرين ذوي اللحي بخلق شعرهم، حيث قال إن الشرطة في المنطقة تستهدف أي شخص يشتبه في تورطه في الاعتصام
وتابع "بندق": "بمجرد خروجي من المبنى، شممت رائحة شيء يحترق كان هناك منظفون في الشوارع ينظفون ويجمعون القمامة ويلقون الخيام المحطمة عدنا إلى حيث كانت خيمتنا ذات مرة كانت هناك برك من الدماء على الأرض وتناثرت الأحذية والشباب والملاص في الشارع كانت هناك أغلفة الرصاص في كل مكان وجدنا الخيمة محطمة كان الناس يحملونها بعيدًا، وألقيت متعلقاتنا على الأرض وجدنا ملابسنا، ووجدت بطاقتي لمترو الأنفاق في لندن، وبطاقة هويتي الجامعية، ومفاتيح شقتي في المملكة المتحدة وألقيتها في حقيبة الرياضية المعزقة التي كنت أستخدمها لتخزين ملابسني".
ولحسن الحظ، نجا "سالم" وكان ينتظرهم في الشقة التي مكثوا فيها أثناء وجوده بمصر في هذه المرحلة علموا بوفاة أحد أصدقائنا، "أحمد سنبل". كان مدرسًا مساعدًا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وعمره 24 عامًا فقط، وكان قد أمضى وقته في الاعتصام يساعد في المستشفى الميداني".
عادت القاهرة إلى طبيعتها وكأن شيئًا لم يحدث ذهب الناس إلى العمل كالمعتاد، وأعيد فتح الشوارع كما لو أنه لم يمض ألف شخص هناك

صفوف على صفوف من الجثث في أكفان

في المساء، زار "بندق" مسجد كان يستخدم كمشرحة مؤقتة بعد أن أحرقت قوات الأمن مسجد رابعة أثناء الفض، ويصف الوضع قائلاً: "على الأرض، من المدخل وصولاً إلى آخر المسجد، كانت هناك صفوف على صفوف من الجثث ملفوفة بأكفان".
تم وضع قوائم بالأسماء بالقرب من المدخل للعائلات للعثور على أحبائهم وكانت هناك نساء يجلسن بجانب أجساد أبنائهن أو أزواجهن أو آبائهن
كان الرجال ينهارون عندما وجدوا أحبائهم ملفوفين في كفن كان هناك صمت مخيف، لهث الصدمة بين الحين والآخر، أو عويل شخص محطم القلب
كان هناك قسم واحد استوحذ على أكبر قدر من الاهتمام، محاطًا بالمصورين والصحفيين كلما اقتربت، أصبحت رائحة الحرق أكثر حدة كانت هناك كتل ضخمة من الجليد فوق الجثث
سحب أحد الأطباء الكفن عن رأس إحدى الجثث - أو ما تبقى منها كان الرأس أسود، وكان جزء من الجمجمة مفقودًا

استغرق الأمر من "بندق" بضع لحظات ليدرك أن هؤلاء الناس قد احترقوا حتى الموت □
حتى يومنا هذا، لم تتم محاسبة أي شخص على أفعاله في رابعة □ في الواقع، الرجل الذي أصدر الأمر بإخلاء الساحة، وزير الدفاع آنذاك "عبد الفتاح السيسي"، أصبح منذ ذلك الحين رئيسًا لمصر □
شاهدنا بعد عامين فقط قيام "ديفيد كامبيرون" بتدوير السجادة الحمراء في لندن للسيسي، وهو رجل مسؤول عن وفاة أصدقائنا وآلاف آخرين، بما في ذلك مصور سكاي نيوز المخضرم المواطن البريطاني "مايك دين".

بطانة فضية واحدة

مع تلاشي الغبار حول رابعة، كان الانقسام الهائل في المجتمع المصري أعمق بكثير مما كنا نتخيله □ شاهدنا الأصدقاء والعائلة والناشطين وأولئك الذين وصفوا أنفسهم بأنصار حقوق الإنسان وهم يهتفون للمجزرة كما لو أن دماء مواطنيهم لا تعني شيئاً □
<https://www.middleeasteye.net/discover/egypt-rabaa-memories-of-massacre-review-revolution-end>